



## 148316 - "مدارج السالكين" لابن القيم : أصل الكتاب وأسمه ومنهجه فيه والملحوظات عليه

### السؤال

ما هو منهج الإمام ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين" ؟ وهل هناك ملاحظات على هذا الكتاب ؟ وبم تتصحون قارئه ؟ .

### الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً:

أصل كتاب "مدارج السالكين" :

هذا الكتاب شرح وتعليق على كتاب الإمام أبي إسماعيل الهروي - توفي 481 هـ - المسمى "منازل السائرين" ، وهو كتاب في أحوال السلوك وطريق السير إلى الله ، ألفه بعد أن سأله جماعة من أهل "هرة" عن رغبتهم في الوقوف على منازل السائرين إلى الله ، فأجابهم في ذلك ، وجعله مائة مقام مقسمة على عشرة أقسام كل منها يحتوي على عشر مقامات .

ثانياً:

لمحات عن منهج المؤلف في الكتاب :

1. لم يلتزم في شرحه لكتاب الهروي بترتيب الكتاب ، بل يقدم بعض الجمل ، ويؤخر أخرى ، كشرحه لكتاب الهروي في "القصد" الذي جعله الهروي في الباب الحادي والأربعين ، فجعلها ابن القيم بعد منزلة "البصيرة" أول المنازل التي شرحها ، وكتقديم ابن القيم منزلة "المحاسبة" على منزلة "التوبة" مخالفًا بذلك ترتيب الهروي .

2. لم يكن ابن القيم في كتابه مجرد شارح لكتاب الهروي يتناوله بالتفصير ، بل كانت شخصيته واضحة أثناء شرحه ، وكأنه اتخذ من شرحه لكتاب الهروي مناسبة ملائمة لبيان آرائه هو ، كما فعل في مقدمة كتابه في الكلام على سورة الفاتحة وجعلها بداية منطلقه في الكلام على منازل السائرين إلى الله ، بل إن ابن القيم لم يصرح في كتابه "المدارج" أنه ألفه بقصد شرح كتاب الهروي .

3. لم يلتزم ابن القيم رحمه الله بشرح جميع جمل الكتاب ، وإنما كان يختار بعض الفقر فيسوقها كاملة ، أو يختصرها ، ثم يقوم بشرحها ، بل أول ما عُني بشرحه من كتاب الهروي هو منزلة "البصيرة" ، تاركًا جملة من الكتاب لم يشرحها .

4. يتميز كتاب الهروي في بعض مواطنه بالعبارات الغامضة ، وكان ابن القيم مدركاً لذلك فتجده يقول مثلاً "كلام فيه قلق وتعقيد ، وهو باللغز أشبه منه بالبيان" ، ومع ذلك فقد شرح كثيراً من عبارات الكتاب الغامضة .

5. أولى ابن القيم النصوص المجملة من كتاب الهروي عناية خاصة ؛ لما يعلم من تسلط بعض أهل الفلسفة والحلول على



هذه الجمل وشُرْحُهم لها بما يوافق مذهبهم .

6. يمتاز أسلوب ابن القيم بالبساط والإطناب في شرحه لما يريد ، وهذه عادة عند المؤلف في كتبه غالباً .

7. لم يكن دفاع ابن القيم عن الheroi ضد خصوصه يعني الموافقة المطلقة له على آرائه ، أو المتابعة الكاملة له ، فقد وجد في آرائه ما تجب مخالفته فيه ، ولكنـه كان حريصاً على تقديره وتبجيله ، لما هو معروـف عن الheroi من صلابـته في السنة ، وشدـته على البدع وأهـلها . ولذلك عندما عـلق على خطـأ في كلام الheroi فقال "شيخ الإسلام - أي : الheroi - حبيب إلينا ، والـحق أحب إلينا منه ، وكلـ من عـدا المعصوم صـلى الله عـلـيه وـسـلم فـمـأـخـوذ من قـولـه وـمـتـرـوك ...." ، بلـ إنه في بعض الأحيـان يـرـفض ما يـذـكـرـه الheroi من أنـ هـذـهـ المـنـزـلـةـ منـ مـنـازـلـ السـائـرـينـ إـلـىـ اللهـ ، أوـ أنـ هـذـهـ المـنـزـلـةـ منـ مـنـازـلـ العـامـةـ ، كما فعلـ الheroi في منزلـةـ "التـوـبـةـ" ، وـ "الـإـنـصـافـ" ، وـ "الـرجـاءـ" ، وـ "الـشـكـرـ" .

8. أكثرـ ابنـ الـقيـمـ فيـ كـتـابـهـ منـ ذـكـرـ شـيخـهـ ابنـ تـيمـيـةـ رـحـمـهـ اللـهـ ، مماـ جـعـلـ الـكـتـابـ مـصـدـراـ مـهـماـ لـمـعـرـفـةـ كـثـيرـ منـ آرـاءـ الشـيخـ واختـيـارـاتـهـ الـعـلـمـيـةـ ، بلـ وـسـيـرـةـ حـيـاتـهـ .

9. وقد امتاز الكتاب - وهذه من أهم مزاياه - بكلـامـ هذاـ الإـمامـ فيماـ يـتـعـلـقـ بـتـهـذـيبـ النـفـوسـ وـأـعـمـالـ الـقـلـوبـ ، وهوـ كـلـامـ منـ قدـ خـالـطـتـ هـذـهـ الـمعـانـيـ الإـيمـانـيـةـ سـوـيدـاءـ قـلـبـهـ ، فـقاـمـ بـتـرـجـمـتهاـ فيـ هـذـهـ المـؤـلـفـ ، وـكاـنـ كـلـامـ ابنـ الـقيـمـ فيـ هـذـهـ الـجـوانـبـ كـلـاماـ عـظـيـماـ قـلـلاـ منـ يـأـتـيـ بـمـثـلـهـ فـضـلـاـ عـنـ أـفـضـلـ مـنـهـ ، خـاصـةـ وـقدـ عـرـفـنـاـ أـنـ أـلـفـهـ فيـ أـوـاـخـرـ حـيـاتـهـ بـعـدـ أـنـ رـسـخـتـ قـدـمـهـ فيـ الـعـلـمـ .

ثالثاً :

ملاحظات على كتاب "مدارج السالكين" :

ممنـ كـتـبـ مـلـاحـظـاتـ جـيـدةـ وـمـعـتـدـلـةـ عـلـىـ كـتـابـ الـمـارـاجـ الـدـكـتوـرـ عـبـدـ الـحـمـيدـ مـذـكـورـ فيـ مـقـدـمةـ تـحـقـيقـهـ لـلـجـزـءـ الثـانـيـ مـنـ الـكـتـابـ وـنـذـكـرـهـ هـنـاـ -ـ بـتـصـرـفـ - .

1. الواقع في التكرار أحياناً ، ومن أمثلة ذلك حديثه عن الشوق وعلاقته باللقاء ، وهـلـ يـزـوـلـ الشـوـقـ عـنـهـ أـوـ لـاـ ، وكـذـاـ المـفـاضـلـةـ بـيـنـ التـصـوـفـ وـالـفـقـرـ ، وـكاـنـ مـنـ أـهـمـ ماـ وـقـعـ التـكـرـارـ فـيـهـ :ـ ماـ تـحـدـثـ بـهـ عـنـ "ـالـفـنـاءـ" ، وـقدـ تـكـرـرـ فـيـ حـدـيـثـهـ عـنـ شـرـحـهـ لـنـصـوصـ الـheroiـ لـأـقـسـامـ الـفـنـاءـ وـدـرـجـاتـهـ ، وـكاـنـ مـنـ الـمـمـكـنـ الـاـسـتـغـنـاءـ بـإـحـدـىـ الـمـرـتـيـنـ عـنـ الـأـخـرـ ، لـاـ سـيـماـ وـقدـ اـسـتـمـرـ الـحـدـيـثـ صـفـحـاتـ عـدـيـدةـ فـيـ كـلـ مـنـهـماـ .

2. وـربـماـ تـحـدـثـ ابنـ الـقيـمـ عـنـ بـعـضـ الـمـسـائـلـ بـإـيـجازـ أـحـيـاناـ لـكـنهـ يـعـودـ فـيـفـصـلـهـ عـلـىـ نـحـوـ أـوـفـيـ ، وـمنـ ذـكـ حـدـيـثـهـ عـنـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ عـنـ الصـوـفـيـةـ ، أـوـ حـدـيـثـهـ عـنـ الـجـمـعـ وـمـرـاتـبـهـ ، وـقدـ قـالـ فـيـ الـمـرـةـ الثـانـيـةـ :ـ "ـوـقـدـ تـقـدـمـ ذـكـرـ الـجـمـعـ وـلـمـ يـحـصـلـ بـهـ الشـفـاءـ وـنـحـنـ -ـ الـآنـ -ـ ذـاكـرـونـ حـقـيقـتـهـ وـأـقـسـامـهـ ، وـالـصـحـيـحـ مـنـهـ وـالـمـعـلـولـ" .

3. وقد يـضـطـرـبـ تقـسيـمـهـ لـلـشـيـءـ ، فـيـجـعـلـهـ قـسـمـيـنـ أـحـيـاناـ ؛ـ وـيـجـعـلـهـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ أـحـيـاناـ أـخـرـىـ مـعـ أـنـ مـنـاطـ التـقـسيـمـ أـوـ أـسـاسـهـ وـاحـدـ ، وـمـنـ ذـكـ أـنـهـ قـسـمـ الـفـرـاسـةـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ :ـ فـرـاسـةـ إـيمـانـيـةـ ، وـفـرـاسـةـ تـعـلـقـ بـالـجـوـعـ وـالـسـهـرـ وـالـخـلـوـةـ وـالـرـياـضـاتـ ، وـقـدـ عـادـ فـقـسـمـهـ هـيـ نـفـسـهـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـقـسـامـ أـضـافـ فـيـهـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ السـابـقـيـنـ مـاـ سـمـاهـ الـفـرـاسـةـ الـخـلـقـيـةـ الـتـيـ صـنـفـ فـيـهـ الـأـطـبـاءـ وـغـيـرـهـ ، وـقـدـ أـورـدـ الـأـقـسـامـ الـثـلـاثـةـ مـوجـزـةـ ثـمـ شـرـحـهـ .

4. وقد يـقـسـمـ الشـيـءـ إـلـىـ أـقـسـامـ يـبـدـأـ فـيـ الـحـدـيـثـ عـنـهـ فـيـتـحـدـثـ عـنـ بـعـضـهـ ، وـيـنـسـىـ بـعـضـهـ ، وـمـنـ ذـكـ أـنـهـ ذـكـرـ أـنـ آرـاءـ النـاسـ



في إثبات المحبة ونفيها أربعة أقسام ، ولم يذكر من هذه الآراء إلا رأيين .

5. وقد يقوم ابن القيم ببعض الإحصاءات ثم يتبع عدم الدقة فيها ، ومن ذلك : أنه احتاج على رفعه مقام التوكل بأن الله عز وجل قد أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم في أربعة مواضع ، على حين أنها تسعه لا أربعة .

ومن ذلك : أنه قال - وهو في سياق بيانه لمعنى الفقر وحقيقة - عند الصوفية إن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع ، وهذا غير صحيح ؛ لأن لفظ "الفقر" لم يرد في القرآن إلا مرة واحدة في الآية ( 268 ) من سورة البقرة ، ويلاحظ أنه أكد كلامه بذكر ثلاث من الآيات التي ورد فيها لفظ الفقراء لا الفقر ، فإن كان مقصده الحديث عن لفظ الفقراء : فقد ورد اللفظ في القرآن سبع مرات لا ثلاثة كما قال .

وأخيراً :

ولئن وقع شيء من هذه الهنات في مثل هذا الكتاب الضخم الكبير : فإن ذلك لا يقلل من فضائله ، ولا يضعف من مزاياه ، ولقد سبق ابن القيم إلى الاعتذار عما يمكن أن يكون قد سبق به قلمه ، أو انتهى إليه فهمه ، فقال في أواخر كتابه : " وما وجدت فيه من خطأ : فإن قائله لم يأل جهد الإصابة ، ويا بى الله إلا أن ينفرد بالكمال ... " .

انتهى مختصرًا من تقرير أعدد موقع " ثمرات المطابع " ، ويمكن الاطلاع عليه كاملاً هنا :

<http://ahlalhdeeth.com/vb/attachment.php?attachmentid=37993&d=1144058898>

سادساً :

شهادات بعض العلماء في الكتاب :

ونزيد هنا فنذكر بعض أقوال أهل العلم في كتاب ابن القيم " مدارج السالكين " :

1. سُئلَ الشِّيخُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعَثِيمِيْنَ - رَحْمَهُ اللَّهُ - :

هَلْ لَكُمْ مَلْحُوظَاتٍ عَلَى كِتَابٍ "مَدَارِجُ السَّالِكِينَ" لِابْنِ الْقِيمِ؟ .

فأجاب :

ابن القيم رحمه الله أكبر من أن يكون لي وأمثالي ملاحظات عليه ، وإن كان غير معصوم ، لكن الكتاب - كما تعرف - هو شرح لـ " منازل السائرين " ، وأصل الكتاب المشروح فيه بعض الملاحظات ، ففيه ما يومن إلى شيء كبير في الدين ، وإن كان ابن القيم رحمه الله اعتذر عنه ، وبَيْنَ أَنَّهُ بِرِيءٍ مِّمَّا يَتَبَارَدُ مِنْ كَلَامِهِ .

وما من إنسان إلا ويؤخذ من قوله ويُترك ، وأنا ما قرأت الكتاب من أوله إلى آخره ، لكن أقرأ بعض المواضع منه ؛ لأن بعض المواضع لا يمكن أن تجدها في كتاب ، وبعض الھفوات لا أحد يسلم منها .

انتهى من " لقاء الباب المفتوح " ( 132 / السؤال رقم 9 ) .

2. وقال الشیخ عبد الكریم الخضیر - حفظہ اللہ - :

" مدارج السالكین " كتاب مفيد في أدباء القلوب ، ولا يسلم من ملاحظات يسيرة ، لكنه كتاب نافع ، علّق عليه الشیخ " حامد الفقی " ، وشدد في العبارة أحیاناً على ابن القیم بكلام لا ينبغي أن يقال في جانبه .

المقصود : أن ابن القیم ليس بمعصوم ، وحاول - رحمه الله - أن يقرب الكتاب الأصل المشروح ويدنیه لطلاب العلم ويتكلم



على ما فيه من ملاحظات ، ولم يسلم - رحمة الله عليه - .  
والكتاب نفيس ، والأشياء التي تلاحظ على الكتاب مغمورة في بحار ما فيه من علم جم .  
طبعه الشيخ محمد رشيد رضا بمطبعة المنار ، ثم طبعه الشيخ محمد حامد الفقي بمطبعة أنصار السنة المحمدية .  
انتهى من موقع الشيخ .

<http://www.khudheir.com/text/108>

والله أعلم